Al-Zaytouna Centre
for Studies & Consultations

مركز الزيتونة
للدراسات والاستشارات

One Day Seminar

حلقة نقاش

The Palestinian Issue

القضية الفلسطينية

Strategic Evaluation 2012 - Strategic Assessment 2013

تقييم استراتيجي 2012 - تقدير استراتيجي 2013

مداخلة

انعكاسات الثورات والتغيرات في العالم العربي على فلسطينيي الخارج 2012–2013

د. محمود الحنفي

Crowne Plaza - Beirut - Lebanon
February 6th, 2013

فندق كراون بلازا – بيروت – لبنان
6 شباط/ فبراير 2013

انعكاسات الثورات والتغيرات في العالم العربي على فلسطينيي الخارج 2012-2013

د. محمود الحنفي*

لماذا تقوم الثورات؟

أيّ ثورة شعبية تقوم إنما هي نتاج انفجار ذاتي، له أسبابه الموضوعية المتراكمة الكامنة في تردي الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، متلازمة مع تقييد هائل للحريات على كافة أشكالها، وسوء فاضح في توزيع الثروات، واحتكار السلطات وقهر الناس. إن شعور المواطن العربي بالمهانة على المستوى الداخلي أو على المستوى القومي، خلال عقود من الزمن، أوجد لديه حالة يأس عامة من النظام الذي يحكمه.

ليس للثورة زمان محدد أو مكان محدد، وليس للثورة مدبر أو قائد، بل هي ثورة مجتمعية محضة.

اندلعت الثورة الشعبية في تونس في 2010/12/18 احتجاجاً على الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية السيئة، وتضامناً مع محمد البوعزيزي، الذي أضرم النار في نفسه. واستطاعت هذه الثورة في أقل من شهر، في 2011/1/14، الإطاحة بالرئيس التونسي زين العابدين بن علي، الذي حكم البلاد لمدة 23 سنة بقبضة حديدية. ولم يكن ثمة موعد محدد لاشتعالها، كما لم يكن هناك شخص أو حزب يقودها.

اندلعت الثورة المصرية في 25 كانون الثاني/ يناير، والتي تأثرت بالثورة الشعبية التونسية. واستطاعت هذه الثورة في 2011/2/11 إسقاط أقوى الأنظمة العربية، وهو نظام حسني مبارك خلال 18 يوماً من اندلاعها. والأسباب التي دفعت الشعب المصري للثورة ذاتها تقريباً. ولم يكن ثمة موعد محدد لاشتعالها أيضاً.

اندلعت الثورة الليبية في 2011/2/15 من مدينة بنغازي، إثر اعتقال محامي ضحايا سجن بوسليم، فتحي تربل في مدينة بنغازي، فخرج أهالي الضحايا ومناصروهم لتخليصه، وذلك لعدم وجود سبب لاعتقاله، وتلتها في 16 شباط/ فبراير مظاهرات للمطالبة بالإفراج عنهم. ثم انتشرت هذه الاحتجاجات فيما بعد في أغلب المدن الليبية. وقاد هذه الاحتجاجات الشبان الليبيون الذين طالبوا بإصلاحات سياسية، واقتصادية،

* د. محمود الحنفي: حقوقي فلسطيني، ومدير المؤسسة الفلسطينية لحقوق الإنسان (شاهد).

واجتماعية. وخلال ثمانية أشهر تمّ إسقاط نظام الرئيس الليبي معمر القذافي. ولم يكن هناك موعد محدد، أو حزب، أو قائد يقود هذه الثورة.

وكذلك الأمر في الثورة اليمنية والسورية... إذن لم تكن هناك مواقيت محددة لاشتعالها، ولم يكن مكان محدد، كما لم تكن هناك قيادة فكرت، وخططت، ثم انطلقت بثورة. الضغط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي يولد ثورة شعبية عارمة.

أما في فلسطين المحتلة، فقد اندلعت انتفاضة الحجارة في كانون الأول/ ديسمبر 1987، بسبب ممارسات الاحتلال الإسرائيلي، التي بلغت حداً لا يطاق، والاحتلال بحدّ ذاته يعدّ من أشر الشرور، وهو بحدّ ذاته سبب جوهري، ورئيسي لاندلاع أي ثورة، ولم تشعل هذه الثورة أيّ من الفصائل الفلسطينية. وحادث الباص كان الشرارة ليس إلا، لتفجير الغضب الفلسطيني.

أما انتفاضة الأقصى في أيلول/ سبتمبر 2000، فقد كانت لانسداد أفق التسوية، وتغول الاحتلال في انتهاك حقوق الفلسطينيين، وازدياد معدلات الاستيطان، وتهويد القدس، أسباب رئيسة لقيامها. ولم تكن زيارة شارون إلا الشرارة.

قد تتطور الثورة الشعبية لتأخذ أشكالاً مسلحة في وقت لاحق، إن لم تحقق أهدافها العامة، ولكن قد تكون شرارتها حدث صغير يعدّ غير ذي قيمة لو حدث في ظروف طبيعية أخرى.

القضية الفلسطينية قبل الثورات وبعدها:

أعتقد أنّه قبل الثورات وبعد الثورات بقيت وتبقى القضية الفلسطينية على أجندة المواطن العربي، لكنّ المنتفضين أصبحوا أكثر وعياً حيال حقيقتين:

الأولى أنّ كثيرين (خاصة الأنظمة)، استغلّوا القضية الفلسطينية فقط من أجل شرعنة الأحوال السيئة التي يعيشها الناس أو من أجل جعلها "شمّاعة"، لتبرير استمرار سوء أحوالهم بدعوى مواجهة الصهاينة.

أمّا الثانية، ومن حيث المبدأ، فهي أنّ الشعوب العربية لا يمكنها مساعدة الفلسطينيين بشكل فاعل ومؤثر إلا من خلال مساعدة أنفسهم أوّلاً، والالتفات إلى أوضاعهم. فمسلوب الحريّة لا يستطيع أن يساعد أخاه الذي اغتصب الصهاينة أرضه،

ومعدم الدخل لا يستطيع أن يساعد أخاه الفلسطيني بالمساعدات المالية المطلوبة... وهكذا.

الثورات العربية وفلسطينيو الخارج:

بالتأكيد سوف تنعكس الثورات على الفلسطينيين في الخارج، أمّا كيف؟ فيعتمد ذلك على الأرجح على النتيجة التي ستصل إليها هذه الثورات، التي تحتاج إلى فترة ليست بسيطة من الزمن لإعادة تصحيح الأوضاع في بلدانها، بعدما تمّ استنزاف هذه الدول والشعوب من قبل حكّام اغتصبوا السلطة لعقود طويلة دون أيّ شرعيّة... والأرجح أنّ الانعكاس سيكون إيجابياً.

الفلسطينيون أصحاب قضية عادلة ومحقّة، ويبحثون عن الحريّة وعن استعادة حقوقهم المغتصبة، بل إن الفلسطينيين كانوا سبّاقين من خلال عدد من الانتفاضات. لكن الظروف الداخلية، ومن ثمّ الإقليمية والدولية لم تسمح لهم بالذهاب حتى النهاية، كما أنّ مكانة "إسرائيل" الدولية السياسية، والاقتصادية، وافتقار العرب إلى قوة الحرية والديموقراطيّة من جهة، وضعفها السياسي، والاقتصادي، والعسكري من جهة أخرى، حدّ من نتائج هذه الثورات ومن ثمّ تقدّمها.

البيئة الديموقراطية، والرفاه الاقتصادي والاجتماعي، وتوفر القدر الكافي من الحرية والكرامة للإنسان العربي سوف يكون عاملاً إيجابياً على القضية الفلسطينية عموماً، وعلى قضية فلسطينيي الخارج خصوصاً، ذلك أن الإنسان الحرّ أقدر من حيث المبدأ على دعم القضية الفلسطينية.

وإذا كنا متفقين على أن القضية الفلسطينية هي أمّ القضايا العربية، وهي تعيش في وجدان المواطن العربي عموماً، وأن الإنسان العربي العادي لم يبخل في يوم من الأيام، على الرغم من ظروفه المعروفة، عن دعم القضية الفلسطينية، فإنه من باب أولى أن تحظى القضية الفلسطينية بالرعاية والاهتمام، إن توفرت شروط الحرية والكرامة الإنسانية.

عدّت الأنظمة العربية عموماً، الحامي الحقيقي لـ"إسرائيل"، فمنذ أن تأسّست في خمسينيات القرن الماضي، تأسست كأنظمة شمولية، ما سهّل قمع الشعوب العربية في سعيها ضدّ تلك الأنظمة، وضدّ "إسرائيل" في آن واحد. الأنظمة العربية، هي من حمى

حدود "إسرائيل"، وصمت على اعتداءاتها المتكررة، وهي من أبرمت معها اتفاقيات الصلح، وهي من أذاق الثوار الفلسطينيين المقيمين على أرضها، والعرب المناهضين لـ"إسرائيل" ويلات السجون وفنون التعذيب والقتل.

لم يتغير شيء على الاحتلال الإسرائيلي فهو لا يزال يبطش بالشعب الفلسطيني يومياً، وما تزال عمليات الاستيطان تجري دون توقف، وما زالت عملية تهويد القدس، والحفريات تحت المسجد الأقصى على قدم وساق، وفوق هذا كله، لا يزال اللاجئون الفلسطينيون ممنوعين من العودة إلى أرضهم. باختصار ما تزال القضية الفلسطينية كما هي بكل مكوناتها، لم يتغير شيء.

الثورات العربية لا يمكن إلاّ أن تُسقِط من داخلها، ومن حولها كلّ ما هو رديء ومنحرف، داخلياً وخارجياً، فقضية فلسطين، وقضايا الاستقلال، والتحرّر، والوحدة والعدالة، والهوية العربية والإسلامية متأصلة في وعي الأمة، تماماً كقضايا الحريّة، والكرامة، وحقوق الإنسان، والديموقراطية التي يبحث عنها المواطن العربي.

لقد كانت القضية الفلسطينية ضحية لتردي حالة العالم العربي، الذي كان وما يزال غارقاً في همومه الداخلية. ولعلّ اهتمام "إسرائيل" والدول الغربية بمسارات الثورة المصرية نابع من التأثير الكبير الذي سيتحقق للقضية الفلسطينية إن نجحت هذه الثورة.

يجب ألا يزج الفلسطينيون أنفسهم في أيّ ثورة عربية، وأن يحذروا من أية محاولة للزج بهم، خوفاً من أيّ ظلم جديد قد يقع عليهم، خاصة في المراحل الانتقالية لأيّ ثورة. ولكن الفلسطينيين معنيون تماماً بنجاح هذه الثورات، وهم يترقبون اليوم الذي تستقر فيه الدول العربية الثائرة.

إنّ عامل الزمن في صناعة التاريخ وبناء الأمم لا يقاس بأيام أو شهور، بل بسنين طويلة مليئة بالتضحيات.

ثورة فلسطينيي الخارج: ما هو شكلها؟

يعيش اللاجئون الفلسطينيون في الخارج بشكل رئيس في عدة دول، منها لبنان، وسورية، والأردن، ومصر، والعراق، ودول أخرى، وذلك منذ أكثر من 64 عاماً. يعيشون لاجئين في ظروف اقتصادية، وسياسية، واجتماعية بائسة للغاية. لم يستطع

النظـام الرسـمي الفلسـطيني سـواء كـان بجهـده السياسـي، أو العسـكري أن يعيـد اللاجئـين إلـى ديـارهم، ولا أن يحقـق لهـم الأمـن والأمـان، ولا الرفـاه الاقتصـادي حتـى فـي حـدوده الدنيا، بل إن ظروفهم تزداد سوءاً عاما بعد عام.

كمـا أن المجتمـع الـدولي عجـز خـلال سـتة عقـود ونصـف أن يعيـد هـؤلاء إلـى ديـارهم وبيـوتهم، كمـا عجـز أن يـوفر لهـم حاجـاتهم الإنسـانية العاديـة. أمـا الـدول العربيـة التـي يعـيش فيهـا هـؤلاء اللاجئـون، فلـم تقـدم لهـم الرعايـة الإنسـانية الكافيـة، ولـم يتعامـل معهـم كأصـحاب قضـية عادلـة يسـتحقون التكـريم والـدعم، فهـم يعيشـون فـي مخيمـات تضـيق عامـاً بعـد عـام، ومعـدلات الفقـر والحرمـان تـزداد بشـكل مخيـف، حتـى باتـت المخيمـات الفلسطينية عبارة عن قنبلة اجتماعية قد تنفجر في أيّ لحظة.

فضـلاً عـن كـلّ ذلـك فـإن الاحـتلال الإسـرائيلي يمعـن فـي تغييـب حـقّ عـودة اللاجئـين الفلسـطينيين، سـواء ميـدانياً، مـن خـلال تغييـر معـالم الخريطـة الجغرافيـة علـى الأرض، أم من خلال علاقاته السياسية، والاقتصادية القوية مع الدول الغربية.

إن منظمـة التحريـر الفلسـطينية هـي جـزء مـن النظـام الرسـمي العربـي بكـل آفاتـه وعيوبـه. وكمـا قامـت بعـض الشـعوب علـى أنظمتهـا للأسـباب السياسـية والاقتصـادية والاجتماعيـة الـواردة أعـلاه، فإنـه مـن المتوقـع أن يثـور الشـعب الفلسـطيني أيضـاً علـى هـذا الواقـع، لأنّ مـا يعانيـه الشـعب الفلسـطيني مـن تهمـيش، وفقـر، وحرمـان علـى المسـتوى الـداخلي، ثـمّ علـى مسـتوى مقاومـة الاحـتلال فـي الميـدان، وفـي المحافـل الدوليـة مـرده بشكل رئيس إلى ضعف في أداء منظمة التحرير.

هـذه المنظمـة التـي ولـدت مـن رحـم المخيمـات الفلسـطينية، وكانـت تهـدف إلـى تحريـر كامـل التـراب الفلسـطيني، وإعـادة اللاجئـين الفلسـطينيين إلـى بيـوتهم، وقـراهم. وقـد يثـور الشعب الفلسطيني ضدّ نظامه الرسمي في أيّ لحظة.

لا يشـكّ أحـد بـأن المجتمـع الـدولي، ممـثلاً بوكالـة الأونـروا، لا يقـوم بـدوره تجـاه اللاجئـين، ولا يشـك أحـد بـأن وكالـة الأونـروا هـي الشـاهد الملـك علـى قضـية اللاجئـين ببعـدها السياسـي والإنسـاني، ولكـن أيضـاً لا يشـك أحـد بـأن أداء الأونـروا، سـواء علـى مستوى التخطيط، أم التنفيذ لا يرقى إلى طموحات اللاجئين.

وبالتالي فإن اللاجئين معنيون بتغيير أدائها، والضغط عليها، كي تكون فاعلة تلبي رغباتهم، وتحافظ على هويتهم الوطنية، وتحفظ لهم كرامتهم الإنسانية. وعليه فإن الأونروا لن تكون بمنأى عن غضب فلسطيني عارم.

إن الظروف التي يعيشها اللاجئون على كافة الصعد، هي ظروف غير طبيعية أبداً، وهي بيئة خصبة جداً لقيام ثورة فلسطينية عارمة. لكن لا أحد يتوقع شكل هذه الثورة، ولا المسارات التي يمكن أن تسلكها، ومدى التضحيات التي يمكن أن يقدمها اللاجئون في سبيل الوصول إلى حقوقهم.

ولا أحد يتوقع ضدّ من تكون هذه الثورة، ضدّ النظام الرسمي الفلسطيني؟ أم تكون ضد الاحتلال الإسرائيلي؟ أم تكون ضدّ الدول العربية التي تستضيفهم؟ وأياً تكن التوقعات والتحليلات فإن الفلسطينيين في الخارج باتوا على قناعة تامة بأن واقعهم لن يتغير إلا من خلال ثورة، وأن الثورات العربية داعم قوي لتحركهم.

إن تظاهرة اللاجئين الفلسطينيين عند الحدود الفلسطينية اللبنانية، وخصوصاً عند نقطة مارون الراس في أيار/ مايو 2011 هي أحد أشكال ثورة الشعب الفلسطيني في الخارج. إن الرغبة العارمة لدى الشباب الفلسطيني باقتحام الحدود، مهما كانت التكاليف، يشير بشكل واضح إلى حجم الغضب من الواقع الذي يعيشونه... وهم مستعدون أن يعيدوا الكرّة مرات ومرات، لو توفرت الظروف السياسية والأمنية، حيث ما تزال الرغبة لديهم موجودة بقوة.

وأعتقد أنهم قادرون على صناعة الظروف المناسبة لهم. إن القلق الإسرائيلي في ذلك الوقت دفع الخارجية الأمريكية، والدول الأوروبية لإرسال مبعوثين لتدارك الانزلاق في مواجهة اللاجئين، أو مخافة إبراز قضية اللاجئين من جديد.

لا يمكن توقّع زمان الثورات، أو شكلها، ولكن إن توفرت لها الشروط الذاتية والموضوعية فإنها لا تستأذن أحداً، بل تشق طريقها بكل قوة.

أشكال الثورة الفلسطينية المتوقعة:

- تظاهرات شعبية عادية، عند نقاط الحدود مع فلسطين المحتلة (الأردن، لبنان، سورية، الضفة الغربية وقطاع غزة) تتدحرج بشكل دراماتيكي.

- عمليات عسكرية مسلحة، تقوم بها مجموعات فلسطينية، لا تنتمي إلى أيّ فصيل فلسطيني، خاصة عند دول الطوق وفي الضفة الغربية.
- دخول الفصائل الفلسطينية على خطّ العمل العسكري المسلح، وبروز دور واضح للقوى الإسلامية.
- ثورة شعبية، ضدّ قيادة منظمة التحرير الفلسطينية للضغط عليها، لتفعيل دورها، وجعلها حاضنة للثورة الفلسطينية، ولقضية اللاجئين بكافة فصائلهم.
- الضغط على الأونروا سيكون تحصيل حاصل إن حصلت الثورات أعلاه.
- أما بالنسبة للدول التي يعيش فيها لاجئون، فإنه من المتوقع أن تنفجر المخيمات الفلسطينية بأيّ لحظة ضدّ الواقع البائس الذي يعيشونه.
- بالنسبة لفلسطينيي باقي دول العالم، خاصة في أوروبا، فإنه سوف يكون لهم دور إعلامي وشعبي هائل، وسوف ينقلون واقع قضيتهم في الدول التي يعيشون فيها، وسيضغطون عليها لتغير مواقفها من دولة الاحتلال الإسرائيلي.

إن الثورة الفلسطينية قد تحصل بعد أن تستقر الدول العربية الثائرة، أو قد تسير بموازاتها. وأياً يكن موعد الثورة الفلسطينية وشكلها، فإن الثورات العربية لها تأثير إيجابي حقيقي على أيّ ثورة فلسطينية مقبلة...

إن نتائج الربيع العربي ستكون أكثر فعلاً وعمقاً في التاريخ عندما تصل إلى تحقيق عودة اللاجئين، وهو أمل أصبح قريب المنال، وفي متناول الأيدي، ذلك أن جيل الثورات الحقيقية هذا لا يؤمن بالمستحيل. لا بدّ أن يستأنف الحراك الشعبي الفلسطيني أعماله ويثور من أجل حقوقه المقدسة، لأن كلّ ثورات العالم العربي، ومهما كانت إنجازاتها لن تغني الفلسطينيين عن ثورتهم الخاصة بهم، فهي ثورة الثورات.